
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

دور أوقاف المارستان في الحياة الاجتماعية بمدينة فاس

محمد اللبار

كلية الآداب- سايس فاس-

منذ العصر الموحدي على الأقل، وموازاة مع أوقاف مساجد فاس وجوامعها، وأوقاف مدارسها، تحدثت المصادر عما ترعرع بهذه المدينة خاصة من أوقاف متنوعة متشعبة يذكر منها، أيام أوج الدولة المرينية في القرن الرابع عشر للميلاد: أوقاف مكة المكرمة، وأوقاف الزوايا المرينية وأوقاف الوصايا وأوقاف البيمارستان (1).

اهتم ملوك المغرب بشؤون أوقاف المارستان هذه، وطوروا عنايتها عبر العصور من الاهتمام بالبيمارستانات ومرضاها إلى الاهتمام بالعديد من المشاريع الحضارية الاجتماعية ذات الطابع الإنساني الصرف. بل أكثر من ذلك عملوا على صيانة ممتلكاتها الموقوفة على المنافع العامة وأبواب البر وأوجه الإحسان؛ تلك الممتلكات التي بلغت أوجها في القرن السادس عشر (2) وجعلت هذه الأوقاف تستمر في أداء رسالتها الإنسانية إلى منتصف القرن العشرين. علما أن هذه الأوقاف قد عرفت وإلى عهد المولى إسماعيل (1672 – 1727 م) باسم أوقاف المارستان، وفي عهد سيدي بن محمد بن عبد الله (1757 – 1790م) بأوقاف المساكين، وخلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين بأوقاف سيدي فرج (3).

---

[1]-المنوني، محمد، <u>ورقات عن حضارة المرينيين</u> ،سلسلة بحوث ودراسات رقم 20، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط،، 1996 ، ص. 125.

[2]- لوتورنو، روجي، **فاس قبل الحماية**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر ، بيروت ، 1992، ج1، ص. 378.

[3]- لوتورنو، م. س، ج.1، ص. 373 – 374.وحسب صاحب سلوة الأنفاس كان مارستان سيدي فرج يعرف أول الأمر بمارستان باب الفرج؛ لأنه كان مخصصا للمرضى المجانين الذين كانوا يقيدون هناك بالأغلال والسلاسل، حسب تعبير الوزان الفاسي؛ إلى أن حرفت العامة اسمه ليصبح مارستان سيدي فرج. وللمزيد من التفاصيل انظر:

ـ الكتاني، محمد بن جعفر، <u>سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس</u>، طبعة حجرية، فاس، 1326هـ، ج1، ص216.

ـ الوزان، الحسن بن محمد، <u>وصف إفريقيا</u> ، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الرباط، ط.2، 1983، ج1، ص227 – 229.

اهتمت هذه الأوقاف بصفة عامة بكل ما من شأنه أن يواسي الإنسان ويرفق بالطير والحيوان، ضمن نزعة إنسانية صرفة نراها مرتبطة بالفضل الكبير الذي لجامعة القرويين على مدينة فاس وعلى أهلها قاطبة، إذ نشرت بينهم العلم والمعرفة وهذبت أخلاقهم وأرهفت حسهم.

هذا ولعل وقفة متأنية أمام بعض المشاريع الحضارية الاجتماعية التي قامت برعايتها مؤسسة أوقاف المارستان بمدينة فاس ، كفيلة وحدها لسبر عمق النزعة الإنسانية في هذه المدينة من جهة، ولعلها كذلك مرآة لما تجسده من جهة ثانية هذه الأوقاف عمليا من أوجه التضامن الاجتماعي ورعاية حقوق المعوزين والضعفاء مواساة للإنسان ورفقا بالطير والحيوان.

أ ـ مشاريع التضامن الاجتماعي:

1- **أوقاف العرائس**[4]: وهي دور ثلاثة فرشت وأثثت وأوقفت خصيصا على زواج المقلين من الأشراف والفقراء. واحدة بحومة الكدان من عدوة الأندلس؛ وثانية بحومة العيون بعدوة القرويين؛ وثالثة، ولعلها الأقدم، وتعرف ب "دار العافية "، تفاؤلا للذين يقترنون فيها،أوقفت منذ نهاية القرن السادس للهجرة / الثاني عشر للميلاد، وتقع بدرب الطرون (المعروف اليوم بدرب العرايس) بجوار جامع القرويين.

كان يسمح للعروسين أن يقضيا في إحدى هذه الدور أسبوعا كاملا متمتعين بألبسة حريرية رفيعة، وطيب وحلي ونفقة كاملة للعرس، بما في ذلك نزهة في "عرصة" قرب باب بني مسافر من عدوة الأندلس.

2- **أوقاف الشريفات**[5]: وهي داران بعدوة القرويين مخصصتان لإقامة النساء المعوزات ذوات الأصل الشريف، يجدن بها الملجأ الآمن تحت مراقبة عريفات ونقيب، ويستفدن

والغالب على الظن أنه سمي كذلك نسبة إلى الطبيب الأندلسي فرج الخزرجي الذي تولى إدارة هذا المارستان سنة 900هـ/ 1495م،والذي يرجع إليه فضل إدخال الموسيقى إلى هذا المارستان تخفيفا عن المرضى.

4- التازي ، عبد الهادي ، **جامع القرويين**، بيروت ، 1972، ج1، ص.99 هـ 29 و هـ 54، وص. 177 وج 2، ص. 457.

- الشرقي، علي، محاسن فاس، **مجلة المغرب**، مايو 1933، ص. 112./ - لوتورنو، م. س، ج1، ص. 380-381.

- الكتاني، محمد المنتصر، **فاس عاصمة الادارسة**، الدار البيضاء، 2002، ص. 48.

5- Michaux Bellaire, l'organisation des finances au Maroc, Arch. Marocaines, XI, 1907, p. 240, n1.

- لوتورنو، م. س، ج1، ص. 374.

يوميا خبزا ومبلغا من المال للنفقة ويأخذن كسوة كل سنة: دار بزنقة المشاطين قرب ساحة الصفارين اليوم، ودار بحومة واد الرشاشة.

3-أوقاف المكفوفين [6]: وهي داران بعدوة الأندلس وضعتا رهن إشارة المكفوفين المعوزين يقيمون فيهما دون مقابل: واحدة بجوار مدرسة الصهريج والثانية بشارع النخالين . يضاف إلى ذلك دار ثالثة مفروشة مؤثثة خصصت لتزويج هؤلاء المكفوفين بزنقة رياض جحا بعدوة القرويين.

4-أوقاف دار الثقات [7]: وهي دار أعدت قبالة مسجد رأس الشراطين بعدوة القرويين لإقامة الزوجين المتناوشين المتخاصمين يسكنان فيها بين قوم صالحين ثقة يستعين بهم القاضي لمعرفة المتظلم من الزوجين.

5-أوقاف محو الأمية [8]: وهي رباع وعقارات خصص ريعها للقائمين على تعليم المبتدئين من المتقدمين في السن الذين فاتتهم فرصة تعلم القراءة والكتابة والتثقيف في وقت الصغر. كان هؤلاء يجتمعون إلى معلمهم عند السارية التي بأعلى العنزة من جامع القرويين.

6- أوقاف إنارة الطرقات: وهي مجموعة موقوفات ينفق ريعها على السوامر (الفوانيس) التي كانت توقد عند غروب الشمس لإنارة أزقة وشوارع مدينة فاس. إذ كانت هذه الأوقاف توفر الآلات و الزيت و الفتائل وتؤدي جرايات الوقادين وأعوانهم.

وإذا كان العدد الإجمالي لهذه السوامر غير معروف، فإن بعض الحوالات الوقفية التي تعود في أصلها إلى نهاية القرن السابع عشر قد احتفظت للتاريخ بلائحة لثمان وخمسين سامرة وضبطت مواقعها بدقة في بعض الأمكنة المظلمة وبعض الساباطات[9].

6- Aubin, le Maroc d'aujourd'hui, Paris, 1904, p. 277

-التازي، م. س. ج2، ص. 457 /-لوترنو، م. س، ج1، ص. 374.

- Ricard, Prosper, Le Maroc, Hachette, 6eme éd, Paris, 1948, p. 339.

7- التازي، م. س. ج2، ص.477 هـ 235 وج3، ص. 709.

8 – المرجع السابق، ج2، ص. 458، وج3، ص. 706 و ص. 709.

- Aubin, op. cit, p. 274 3، ص. 707.

9- االمرجع السابق، ج

وهذه الأوقاف نميزها عن أوقاف إنارة جامع القرويين وما حولها وغيرها من المساجد، والتي تعود في أصلها إلى العهد الموحدي [10].

7- خِتان الأطفال المعوزين [11]: وهو عرف أكثر مما هو وقف كان يقوم به مجانا حلاقو مدينة فاس تحت رعاية السلطات المحلية في موسم سيدي علي بوغالب، سنويا في أحد أيام الأربعاء من شهر أكتوبر، لصالح المئات من أطفال الفقراء والمعوزين. وهو عرف تبناه الأطباء خلال هذه العقود الأخيرة وأصبح منذ سنة 2006 يسهر على تنظيمه المجلس البلدي لمدينة فاس احتفاء بذكرى ختان ولي العهد الأمير مولاي الحسن.

8- أوقاف الأواني [12] : وهي رباع وعقارات كان ريعها ينفق على حانوتين، مجهزتين بالأواني والمواعين الفخارية: واحدة في زنقة بوطويل بجوار باب الحفاة من جامع القرويين والثانية قرب باب الحفاة من جامع الأندلس. والحانوتان كان يقصدهما الأطفال والخدم، ذكورا وإناثا، الذين انكسرت بسببهم آنية فخار وخافوا من متابعة أوليائهم أو أسيادهم لهم، فيدفعون هناك الآنية المكسورة ويأخذون بدلها وبشكلها آنية جديدة، ليسلموا من العقوبة.

9- أوقاف المجانين [13]: و كانت تصرف على مارستانات الأمراض العقلية والنفسية التي كان عددها بفاس إثنان على الأقل. أحدهما مارستان برج الكوكب (سيدي علي مزالي اليوم) بباب عجيسة. وثانيهما وهو الأشهر مارستان سيدي فرج (قرب سوق العطارين)، الذي كان يتألف من قسمين: قسم للتداوي يقيم فيه المرضى تحت رعاية أطباء يتفقدون أحوالهم وممرضين وحراس يرعون شؤونهم؛ طابقه العلوي للنساء والسفلي للرجال. وقسم ثان لتدريس الطب.

ومن ضمن أوقاف هذا المارستان بالخصوص، زيادة عما كان يعطى يوميا للمرضى المقيمين به من الخبز والماء، ما ينفق على الموسيقيين أهل الطرب الأندلسي الذين كانوا يزورونه كل يوم جمعة عشية للترفيه عن المصابين والتخفيف عنهم، وكأن السلف قد أدرك ما للموسيقى

10- المرجع السابق، ج1، ص. 80 و100 و ج3. ص697 هـ 252.

11- لوتورنو، م. س. ج 1، ص. 229.

12- التازي، م. س. ج 1، ص. 100 و ج 2، ص. 457.
- الكتاني، المنتصر، م. س، ص. 49.

13 - التازي، م. س، ج 2، ص. 457. Aubin, op. cit. P. 274
- لوتورنو، م. س، ج 1، ص. 373.
- الكتاني، المنتصر، م، س، ص. 47-48.

من مزايا التخفيف عن نفسية المرضى وتهدئة أعصابهم. ولا زال شعراء الملحون ومنشدي " القصائد" يحضرون إلى أيامنا هذه إلى سوق الحناء - مارستان سيدي فرج - صبيحة عيد المولد النبوي للإنشاد والطرب.

10- أوقاف المساجين (14): وهي أوقاف فقيرة لم تكن تؤمن للسجناء إلا الخبز يوميا. وقد كان بفاس العتيقة سجنان واحد للرجال بحي القطانين، وثان للنساء بأحد أجنحة الطابق العلوي من مارستان سيدي فرج. و كان بفاس الجديد سجنان واحد للحق العام هو سجن باب الدكاكين وثان للمعتقلين السياسيين بحي الزبالة.

11- أوقاف الفقراء والمساكين (15): وهي رباع وعقارات يوزع دخلها على الفقراء والمساكين والأسرى المنقطعين والمرضى المنكوبين. ومن جملة هذه الأوقاف في عدوة القرويين فرن السبع لويات الذي يعد أقدم فرن في فاس والذي يقال إنه أقدم من جامع القرويين نفسها، ومن جملتها كذلك مأوى بضريح سيدي أحمد البرنوسي خارج باب عجيسة، ودار كبرى بدرب السعود من عدوة الأندلس لإسكان الفقراء المتعففين الذين لا يسألون الناس.

كان المستفيدون من هذه الأوقاف يأخذون يوميا مبلغا ماليا صغيرا، وذلك لمن كان يوفر لنفسه أسباب المعاش؛ في حين كان الذين لا يستطيعون ذلك يستفيدون من ثلاث وجبات، فطور وغذاء وعشاء؛ ومن حين لآخر توزع على الجميع بعض الألبسة.

وأكثر من ذلك كان لكل فقير أو مسكين محتاج الحق في أن يلتجئ إلى ناظر أوقاف المارستان، أو إلى القاضي، ليكشف عن مسألته ويطالب بتسجيله ضمن لائحة المعوزين.

ومن أطرف ما تقوم به هذه الأوقاف تخصيص تعويض للفقراء أيام المسغبة يستعينون به عند غلاء الأسعار. وهو تعويض تردد صداه في حوالة سنة 922هـ / 1511م، يعود في أصله إلى المحسن أبى مروان عبد المالك بن حيون الصدفي الأندلسي الفاسي المتوفى سنة 599هـ/1203م.

14- لوتورنو، م، س، ج1، ص. 155 و ص. 370-371 وص. 389-390./ Aubin, op, cit, p. 274.

15- Aubin, op, cit, p. 77.2

- التازي، م، س، ج1، ص. 99-105 وص. 134 و ص. 138 و ج2، ص. 457-458.
- لوتورنو، م، س، ج1، ص. 373.

12- أوقاف الغرباء المعوزين [16]: وهي أعراف أكثر مما هي أوقاف، حافظ عليها أهل فاس، تعتني أساسا بالآفاقيين المعوزين الذين يدخلون المدينة ولا يجدون عملا ويصبحون في عوز تام، أو الذين يقصدونها خلال سنوات الجفاف. مثل ذلك الخطوة التي قام بها أعيان المدينة في سنة 1906 م إثر جفاف السنة التي قبلها بتخصيص فندقين مجاورين لباب فتوح لاستقبال هؤلاء الغرباء المعوزين، فندق للرجال وآخر للنساء، وبجراية النفقة عليهم جميعا يوميا خبزا وزيتا وتينا وماء. وقد بلغ عدد المستفيدين آنذاك أزيد من أربعة آلاف نسمة.

13- أوقاف الأمراض المزمنة [17]: وقد تكلم الوزان عن البيمارستانات التي كانت خارج أسوار مدينة فاس في القرن السادس عشر، وخص بالذكر منها ربض المجذومين، المشهور باسم المارستان كذلك، والذي كان موقعه على الأرجح إلى الشمال الغربي خارج أسوار المدينة. كان هذا الربض يضم مائتي دار تقريبا يسكنه المجذومون وغيرهم من ذوي الأمراض المزمنة، والذين كانوا تحت إمرة رئيس منهم يجمع دخل الأملاك العديدة الموقوفة عليهم ... ويقدم إلى هؤلاء المرضى ما هو ضروري لهم بحيث لا يحتاجون إلى شيء.

14- أوقاف سيدي علي بوغالب [18]: وهي أوقاف تنفق على ذوي القروح والجروح الذين يقصدون ضريح هذا الولي داخل أسوار باب فتوح في عدوة الأندلس حيث يجدون العناية إلى أن يفرج الله عنهم.

15- أوقاف تجهيز الموتى [19]: وهي أوقاف تشمل عنايتها سائر المعوزين والغرباء وكل من يموتون دون أن يتركوا ما به يسترون، فيجهزون ويلحقون بمثواهم الأخير.

16- أوقاف مؤنس المرضى [20]: وهذه كذلك من أقدم أوقاف مدينة فاس، تعود في أصولها الأولى إلى ما قبل القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي. وهي أوقاف مخصصة

16- لوتورنو، م، س، ج1، ص. 374-375.

17- الوزان، م، س، ج1، ص. 228، وص. 278.

- التازي، م، س، ج2، ص. 458.

- Ricard, op, cit, p. 339.

18 - التازي، م، س، ج2، ص. 457.

19- لوتورنو، م، س، ج1، ص. 373.

- التازي، م، س، ج2، ص. 457.

20- التازي، م، س، ج2، ص. 322.

لعشرة مؤذنين بصومعة جامع القرويين يتعاقبون فيها على تقسيط الليل، تهليلا وتكبيرا، إلى مطلع الفجر، إيناسا منهم للمرضى وأصحاب الأرق وتخفيفا عنهم مما قد ينتابهم من الألم وهم يتقلبون على أفرشتهم. وهذا الوقف مميز عن وقف المؤذنين العاديين في هذا الجامع.

<u>17- أوقاف فقراء أهل مكة</u> [21]: وكانت عبارة عن مجموعة من الدكاكين المجتمعة في سوق واحد حول ساحة صغيرة بحي القطانين من عدوة القرويين، عرفت في تاريخ مدينة فاس باسم " تربيعة مكة". ولما أتى عليها الزمان وخربت وهدمت قامت الأوقاف بإعادة بنائها في مطلع القرن التاسع عشر على هيئة فندق بثلاثة طوابق، عرف حينها بالفندق الجديد ويعرف اليوم بفندق القطانين الكبير.

<u>18- أوقاف جمع الأزبال</u> [22]: وكانت تضم أملاكا وعقارات ينفق بعض ريعها على المكلفين بالنظافة العامة للمدينة وجمع أزبالها على وجه الخصوص، والبعض الآخر خصص أصلا للمكلفين بالتقاط الجرذان الميتة وجثث الحيوانات من شوارع وأزقة المدينة. وهذه الأوقاف استمرت في أداء مهامها إلى أن نظمت بلدية مدينة فاس في مطلع القرن العشرين.

<u>19- أوقاف القرض الحسن</u>[23]: وقدرها ألف أوقية من الذهب الخالص كانت موكولة إلى ثقات أمناء في بعض حوانيت سوق القيسارية بعدوة القرويين. رصدت هذه الأوقاف لتسليف الفقراء والمضطرين والمحتاجين بدون فائدة ولا زيادة، يقرضون منها في أيام عسرهم على أن يسددوا قرضهم في أجل معلوم بعد مدة محدودة، إلا أن الأيدي العابثة سطت على هذا الوقف نهبا واختلاسا، فضاعت بضياعه دون شك مصالح العديد من الناس.

<u>20-أوقاف مصرية الحاجة</u> [24]: و مصرية الحاجة - بتخفيف الجيم - عبارة عن بيت صغير محمول على مرافق دار كبرى في مقابلة باب الكتبيين من جامع القرويين، خصص

21- المرجع السابق، ج3، ص. 712، هـ 50. - Ricard, op, cit, p. 336.

22- لوتورنو، م، س، ج1، ص. 380. bin, op, cit, p. 274.

23- التازي، م، س، ج1، ص. 106، هـ 64 و ج2، ص. 457.
- الكتاني، المنتصر، م، س، ص. 49.
- الشرفي، <u>مجلة المغرب</u>، م، س، ص. 20-22.

24 - التازي، م، س، ج1، ص. 98 هـ 41، وج 2، ص. 326 هـ 53.

لاستقبال "الضائعات" التي يعثر عليها الناس ولا يعرفون أصحابها ، فيسلمونها لأمناء هذا البيت الذين يتكفلون بالإعلان عنها عند باب الصالحين بعد صلاة كل جمعة.

ب – مشاريع الرفق بالطير والحيوان :

1-أوقاف بلارج (اللقلاق)[25]:وهي دار مجاورة لضريح المولى إدريس وملك لأوقافه ،مشهورة باسم "**دار بلارج**" ، يؤتى به إليها إذا وجد صغيرا أو مريضا أو عاجزا، فيجد هناك العناية من طبيب الدار و خدمتها حيث يعالجونه و يداوونه و يقيمون له عشا في سطحها إلى أن يقدر على الطيران أو يهلك. علما أن لهذا الطائر مواسم يقيم خلالها بمدينة فاس متخذا مآذنها العالية وسطوح منازلها المرتفعة أعشاشا له في أمن وأمان دون أن يزعجه أحد من أهلها.

2-أوقاف البراطيل (الطيور) [26] : وهي عقارات كانت موقوفة لغرض شراء الحبوب أيام المسغبة وتوزيعها مأكلا للطيور في كديتين معروفتين بكديتي البراطيل بباب فتوح وباب عجيسة خارج أسوار المدينة. علما أن بالحرم الإدريسي سقاية معروفة باسم "**سقاية البراطيل**" ، و هي سبيل ماء محمي بشبابيك حديدية تشرب منه الطيور في أمان.

3-أوقاف الدواب [27] : و هي مراع خصبة واسعة على ضفتي واد فاس (واد الجواهر)، إلى الغرب من أسوار فاس الجديد في اتجاه رأس الماء، في مكان معروف إلى أيامنا هذه باسم "واد فاس"، موقوفة على المرضى والعجزة من الدواب،خيلا وبغالا وحميرا، تترك فيها ترعى الكلأ، و تشرب من الواد ،إلى أن تشفى أو تموت.

وختاما أملي أن أكون قد وفقت في مقاربة بعض مظاهر النزعة الإنسانية في أوقاف مدينة فاس وبعض أعرافها.

25– لوتورنو، م، س، ج2، ص. 861.
– الكتاني، المنتصر، م، س، ص. 51.
26 – التازي، م، س، ج1، ص. 106 هـ 64. /– الكتاني، المنتصر، م، س، ص. 50.
27– الكتاني، المنتصر، م، س، ص. 51.